تشرين (سورية) ١٩٨٢/٧/٥

آفاق

هـــوت... سنديانة الجبل!

نعترف: كان سلطان .
اعطى «السلطنة» في الثورة . نبالة
اعطاها . في معنى المعنى . شموخا .
صار الاسم غزيرا كنور العين .
صار وهجا ينير . ويجير . وينير..
ومه استمرنا . في حالكات الليالي . يوم الاستعمار
الفرنسي ظلام . والدنيا . الا اقلها . ظلام . وهو الفارس
الارجواني . يشق حجب الظلام . وبومضة سيف كان لها في
سيوف الجهل ومضات . ولم يايسه ان المساح الدولي لا
يؤاتي . ولم يهن لان ثورته ظلت مفردة . لمسدرة الثورات
آنذاك . ولم يفنط ان لا أيدي . لا صداقات . لا تحالفات .
سوى ما كان اعتمادا على النفس . فالنفس الشجاعة
تتقحم . واليد القادرة . وحدها تصفق... هو والجبل
والعوطة.. و «سائليني يا شام».
وسائل الشام . وكذلك التاريخ . وايضا العروبة.. وكان
كبيرا حيارا . عنيدا . في مساءلة الشام والتاريخ والعروبة.
وها هي الاجوبة: رحلت فرنسا . وانطوى تاريخ
الاستعمار . وصار للعروبة بستان وظفر وثاب..
انما القادة . وحدهم يملكون ان يقرعوا باسطنهم بوابات
الحياة والمجد والنصر..
وكان هو . سلطان الاطرش . قائدا على مستوى التاريخ .
لا تاريخنا فحسب . بل تاريخ دنيانا التي ما زالت على
طريق التحرير التي انبعها..
من اجل ذلك . نفاخر به الدنيا..
ومن اجل ذلك فاخر هوشي منه الدنيا..
فقد كان يعرف . كما نحن نعرف . ماذا يعني ان
يستسلم الانسان الى وطن اشعل الثورة بدءا . واستقل
بدءا . وحطم الاحلاف والمؤامرات بدءا . وما زال وسيظل .
وطن الثورة . وسيبقى . حتما . موطنها . هذه الحمراء
الماجدة.
ونقول ان العروبة . اليوم . في حزن .؟
انما الحزن الوان..
وفي لونه الثوري الازهى . الانقى . ينفجر الاسى من
الصدور جميعا..
ينفجر لا جزعا . ولا انياعا . بل من معرة عرضها
الاقاق..
ينفجر حزننا النبيل . لانه في وطننا . في هذا الوطن
الصغير . الكبير . المعجزة . ولد وينما وكبر وقاد ثورة . رجل
من بيننا نودعه اليوم . ونحس بوداعه وداع تاريخ
بأكمله وداع . جيل من الثوار نعلي ذكره ونعليه وفاء
وتكرمة واجلالا.
ينفجر حزننا المتعدد . لينتقل بحزن متعدد . هو حزن جبل
اشم . كان لعوطتنا في الثورة جناحا وكان سندا . وكان
حديدا ارتد عنه حديد باريس مثلما.
ينفجر لانه حق ان ينفجر ففي مواكب القادة العظام
تسيل احزان الشعوب العظيمة . وتجري دموع هي
الصدق والطهر..
تجري دموع تنوب مناب الكلمات.. صغرت الكلمات
على كبرها . فالقلم يجبى في رثاء الخالد . عجزا عن
الخلود . وتلك نقطة ضعفه.. وتلك شكاتنه في الابداع
الذي بياسر ان يكون ابداعا.
ولقد عرفت سلطان الاطرش عيانا . بعد ان عرفته مسد
الطفولة سماعا . ولم انكر مما سمعته شيئا . بل ازددت
اعجابا . كأنما انا في مواجهة اسد يرمض في عرين.. ففي
السابع عشر من نيسان . مسد عامين . قررت ان ازور
قائد الثورة السورية.. وحين انعطفت بنا السيارة باتجاه
القرية عاودتني ذكريات حلوة وغالية . شكلت اسمار
ليالي النضال الوطني . خلال اعوام طويلة.. ولم يكن
ذلك عجبا فتاريخ هذا الرجل العظيم . موصولا بتاريخ
الجبل الشامخ . موضع اكبار واعتزاز.
وحين بلغنا باب الضافة تملكني احساس بالخشوع
وبالرهبة . وكدت اعود ادراجي . ثم نظرت الى الداخل .
ونضحعت.
وجدتني في محراب البطولة هذا . وبدي نصافح الشيخ
الجليل المنتصب القامة . المتوقد النظرات..
لم يكن كأهله يموه بالسمين . تبادلت معه كلمات..
ولكن المضافة المرحمة كانت تريد ان تسمع ما نقول .
فتحول حديثنا الى علن . وكانت اسئلة واجوبة.. ثم
سكت عمدا . اردت ان اسمع «سلطان الاطرش» بنفسه
يتكلم بيننا اراقب تلك الشعلة التي لهبتنا وقبس
الماضلون من نارها طويلا..
فجأة والحديث يدور حول الموقف العربي في المنطقة .
والاوضاع في لبنان والارض المحتلة . بدأ الشيخ الجليل
يتكلم.. ويا سداد ما تكلم..
صوت واضح فيه كل الحدية وكل الرجولة.. وتوجهات
حكيمة لرجل خبر الحياة . وطلعة زعيم . قائد . مقاتل .
ثائر . يؤيد الاهداف التي نادى بها وما زلنا ننادي..
ويتجسد في كلماته معاني العزم والايمان باللامة الواحدة
وبتحرير الارض . واستعادة الحقوق كاملة غير منقوصة .
حتى خيل الي للحظات ان هذا الرجل مستعد بل راغب
من جديد . بحمل السلاح دفاعا عن العروبة والوجود.
واغادره . في النفس رضى . وفي القلب رهو خفوق.
ثم زرته في المستشفى . وكان هذا اخر العهد.. واسمع
في الصباح الباكر نعيه . اسمعه . وانقي من حزن وتسليم
والجأ الى قلمي واوراقي.. ثم ارمي قلمي واوراقي.. ماذا
اقول؟
ايها الجبل الذي من حروفك صيغت ديباجة المجد!
يا ابناء الجبل الدين . في قراع الاستعمار كنتم قدوة
ومثالا.
ايتها الحجارة التي في الصمود دهشت من صموده
الفريد.
لقد اغلقت الدائرة..
آب الذي كان قائد الثورة الى رحاب الملا الاعلى..
ارتحل الاب والزعيم والابن البار لوطن ما سكنت عهده
البررة من ابنائه .
فلا حول ولا قوة الا بالله..
وعزاء يا وطني ويا امتي!

د. نجاح العطار